الدعوة الإصلاحية في نجد

نرى واجباً علينا أن نتحدث عن حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب والدور الإصلاحي العظيم الذي قام به في نجد، ونمهد لذلك بذكر نبذة يسيرة عن حياة مصلح عظيم آخر: هو أحمد بن تيمية الذي قام في القرن السابع الهجري وأوائل القرن الثامن سنة ٦٦١هـ - ٧٧٨هـ، لما بين الرجلين من التشابه العظيم في الدعوة إلى الحق، ولأن ابن تيمية كان المثل الأعلى للمصلح النجدي الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

كان الإمام ابن تيمية آية من الآيات في فهم الشريعة الإسلامية وأسرارها، كما كان اية في رفع علم الدعوة إلى الحق، واحتمال كل أذى في هذا السبيل .

كان ابن تيمية شجاعاً لا يخشى إلا ا ، ولا يخاف سطوسلطان، وعقيدته:

مَن كان مع ا كان ا معه؛ وله مواقف في غزوات التتر أثناء هجومهم على الشام كانت الدعوة التي يدعو إليها ابن تيمية ترمي إلى ما يأتي:

(١) الرجوع إلى الكتاب والسنة في كل شأن من شئون الحياة، واتباع سبيل السلف الصالح في فهم آيات وأحاديث الصفات، وترك طريق الفلاسفة والمتكلمين والصوفية، حيث إنها لا تتفق مع الروح السلفية القديمة.

(٢) محارب البدع والمنكرات. ولا سيما ما كانت وسيلة للشرك، أو شركا، كالتمس بالقبور والصلاة عندها، وطلب الحاجة منها، والاستعانة أو الاستغاثة بغير ا ، والتبرك بالأشجار والأحجار التي يعتقد فيها العامة الخير أو دفع الشر.

(٣) ترك العفو في الرسولﷺ وتعظيمه بالاهتداء بهديه واتباع رسالته.

(٤) فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، وإعلان الحرب على المقلدين المتعصبين .

هذه هي الأسس التي قامت عليها دعوة ابن تيمية، والتي وقف عليها حياته، وهي نفس الأسس التي قامت عليها دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد.

أثارت دعوة ابن تيمية - في الشام ومصر- ثائرة المقلدين وأرباب الطرق الصوفية عليه، كما أثارت أيضاً ثائرة المتعصبين للمتكلمين والفلاسفة، وأكثرهم من القضاة وأهل المناصب في الدولة وذوي النفوذ فيها، فأوغروا صدور الأمراء عليه، وصوره، خطراً على مستقبل الدولة، وأن أمره قد يعظم كابن تومرت في المغرب. فيصبح صاحب الحول والطول، فيضمحل نفوذهم أمام نفوذه. وفي كل زمن لا يجد الخصوم ذوو الضمائر الميتة سبيلا إلى النكاية بخصومهم إلا التوسل بوسائل الخوف على المملكة وسلامتها وأمن الدولة، وغير ذلك من الوسائل التي تمس الناحية الحساسة في الأمراء، ومن الأمراء يسمع أن حياته وملكه في خطر من شخص ويغمض عينه عن هذا الشخص؟ أن كثيراً منهم في سبيل الملك يقتلون الإخوة والأقارب، ولا يردعهم رحم أو يؤنبهم ضمير، لهل يسكتون عن رجل أجنبي؟

تعتبر سنة ٧٠٥هـ بدء عهد الاضطهاد لابن تيمية، فف يهذه السنة اجتمع العلماء لمباحثة ابن تيمية في قصر نائب السلطنة، غير أن هذه المجالس كانت في صف ابن تيمية، لأن نائب السلطنة كان يؤيده ويأخذ بناصره.

وأخيراً لم يسع نائب السلطنة في الشام إلا أن يرسل الإمام ابن تيمية إلى مصر حسب أمر السلطان الجاشِنْكِير، فإن دسائس الصوفية وخصوم ابن تيمية قد ملأت قلب السلطان حقداً وغضباً على الرجل.

وصل ابن تيمية مصر في رمضان سنة ٧٠٥هـ. فأحضر أمام العلماء للمناظرة. وكلهم من خصومه، وهل تكون أمثال هذه المناظرات وسيلة من

وسائل الإقناع أو الرجوع من الخطأ؟ أدخل الشيخ ابن تيمية السجن لأنه امتنع عن الإجابة. لزن القاضي ابن مخلوف المالكي الذي كان الدعوى أمامه كان من خصوم ابن تيمية.

وقد أعيدت المناظرات عدة مرات بدون طائل، وبعد ثمانية عشر شهراً أخرة من السجن. فعاد إلى الدعوة الإصلاحية، وأعاد الكرة على الصوفية وزعمائهم: ابن سبعين وابن عربي وأشباههم، كما شن الغارة على ساذر المبتدعة، فاعتقل ثانية في شوال سنة ٧٠٧هـ، وفي السجن اشتغل بإصلاح المساجين، وترك ما هم فيه من العبث وإضاعة الوقت. حتى اشتهر أمره، وصار الناس يترددون على السجن لاستماع وعظه ودعوته، فنقل إلى الإسكندرية وضيق عليه، ومنع الناس مع الاختلاط به والتردد عليه، خشية انتشار دعوته الإصلاحية.

وفي ٨ شوال سنة ٧٠٩هـ أطلق سراح الشيخ ابن تيمية من برج الإسكندرية وأرسل إلى القاهرة. إجابة لرغبة السلطان الملك الناصر الذي تغلب على خصومه فقربه إليه، فأقام بالقاهرة داعياً إلى مقاومة البدع ووجوب الرجوع إلى ا في كل الملمات، وترك البدع التي تقام على القبور لمخالفتها للتوحيد الذي جاء به النبي الكريم .

وفي ذي القعدة سنة ٧١٢هـ رجع الشيخ إلى دمشق بعد أن تغيب عنها سبع سنوات، فكان يوم رجوعه إلى دمشق يوماً مشهوداً خرج فيه لاستقبال مريدوه والمناصرون لدعوته في خلق كثير.

وفي دمشق استأنف الشيخ دعوته الإصلاحية بنشاط. وعكف عل ينشر دعوة التوحيد ومقاومة المبتدع والرجوع إلى الكتاب والسنة. وقد كان يفتي بمسائل

تختلف عن رأى الأئمة الأربعة، ولكنها في نظره تتفق مع نصوص الكتاب والسنة، ومع بعض الأئمة الآخرين، وهو يعتقد أن هذا الرأى أقرب للسنة.

لقد كان طبيعياً أن يثور الرجعيون الجامدون المتعصبون للقبور والمتصوفة على الشيخ، كما ثاروا عليه بالأمس. وكان طبيعياً أن تعود المناظرات مع اليخ مرة أخرى.

ولقد أراد ا أن تتغلب قوة خصوم الشيخ ابن تيمية، وهم أهل الحل والعقد في الدولة، وأخيراً حبس الشيخ مرة أخرى في سنة ٧٢٦هـ ثم أطلق سسراحه بعد خمسة أشهر ونصف. فعاد إلى ماعاهد ا عليه من الدعوة إلى ا والرجوع إلى الكتاب والسنة فتألب عليه خصومه مرة أخرى، ووجدوا الفرصة سانحة للنيل من الشيخ واتهام بعدم احترام الأنبياء والصالحين، لأن الشيخ أفتى بتحريم شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة فلا تشد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين.

لقد اجتمعت كلمة خصوم الشيخ على القضاء عليه وعلى الدعوة التي قام بها، فطلبوا من السلطان قتله. فلم يوافقهم على طلبهم، ولكنه اكتفى بحبسه اتقاء الفتنة، ولِمَا لهؤلاء الخصوم من قوة لا يستهان بها اعتقل الشيخ مرة أخرى في سنة ٧٢٨هـ بقلعة دمشق، واضطهد تلاميذه والمنتسبون إليه حتى خفت صوت الدعوة إلا من قلوب المخلصين، وقد بقى الشيخ في معتقله حتى توفى سنة ٧٢٨هـ فلم يصبح لهذه الدعوة القوة التي كانت لها من قبل، ولئن قام تلاميذ الشيخ وأنصاره بالدعوة الفترة بعد الأخرى ، فلم يكن لهذه الدعوة القوة والنشاط اللذين كانا لها في أيام الشيخ رحمه ا .

ولا يسع الإنسان بعد أن يلم بسيرة ابن تيمية، وما لقيه من الاضطهاد في سبيل الدعوة إلى الحق إلا أن يجد تشابهاً عظيما بين حياته وبين حياة لوثر المصلح

البروتستانتي، الذي جاء بعد عصر ابن تيمية بنحو قرنين، فإن الأركان التي قامت عليها الدعوتان واحدة بالرغم من الاختلاف الديني، والوسط الديني الخاص.

كان ابن تيمية يدعو إلى الاجتهاد، ونبذ التقاليد المخالفة للكتاب والسنة، والرجوع رليهما غير ملتفت إلى ماسواهما.

وكان لوثر يدعو الناس إلى تفهم الكتاب المقدس، وقد عمل هو على ترجمته تقريباً لأفهام الناس. وكان ينكر على رجال الدين دعواهم أن حق التفسير والفهم خاص بهم.

كان ابن تيمية ينكر على الصوفية تعاليمهم التي لا تتفق مع الكتاب والسنة، كما كان ينكر الغلو في حب الأنبياء والأولياء: بالصلاة عند القبور والدعاء عندها والاستغاثة بالموتى وطلب الغفران منهم. وكان لوثر ينكر على القسس بيع صكوك الغفران، كما كان ينكر عليهم حق التدخل بين العبد والرب.

ولس من غرضنا في هذا الفصل البحث التفصيلي في وجوه الشبه بين الدعوتين، ولا بين الرجلين لخروجه عن موضوع الكتاب.

غير أن الذي نريد أن نقرره: هو أن الدعوة الإسلامية والإصلاحية التي قام يدعو إليها ابن تيمية في آخر القرن السابع، وأول القرن الثامن من الهجرة (أي الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الميلادي) قد انتهت بالفشل ، وأن الجهود التي بذلها ابن تيمية لم تثمر اثمرة المطلوبة ، لأن رجال الدولة كانوا ضده، ولأن الرجل كان ينقصه اللين السياسي.

أما مارتن لوثر- الذي جاء في القرن الخامس عشر- فقد نجح بفضل المؤازرة التي لقيها من الأمراء والحكام. ولقد أراد ا أن تحيا دعوة ابن تيمية وتنال تصيبها من القوة والانتشار والذيوع على يد الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد،

بمعاضدة الأمير محمد بن سعود في القرن الثاني عشر الهجري، أي بعد عصر ابن تيمية بأربعة قرون تقريباً . والذي كان له الفضل الأعظم في نشر كتب ابن تيمية وكتب تلاميذه. وبعثها من جديد، والتنويه بفضلهم وعظيم أثرهم.

الشيخ محمد بن عبدالوهاب

وُلد الشيخ محمد بن عبدالوهاب سنة ١١١٥هـ الموافقة سنة ١٧٠٣م في بلدة العيينة الواقعة شمال الرياض عاصمة نجد الحاضرة. وقد تلقى على والده دروسه الأولية، ثم سافر بعد ذلك إلى الأحساء والحجاز والبصرة [١] باحثاً ورا ءالعلم محصلاً له، ولذلك صار حجة في الحديث والفقه واللغة العربية. وصار أيضاً ذا قدم ثابتة في كل ما له علاقة بدراسة الدين وقد وقف في رحلاته على الأمراض التي انتبات المسلمين، وما أصاب الشريعة الإسلامية في كثير من الأمصار من لصوق كثير من العقائد الجاهلية والبدع والخرافات، ومن انصراف العلماء إلى الدنيا ومتابعتهم لأهواء الحكام ، فرجع إلى نجد وقد أخذ على عاتقه التفرغ للدعوة الإصلاحية الدينية الصحيحة، ومحاربة البدع والخرفات ما استطاع إلى ذلك سبلاً، فدرس دراسة وافية كثيراً من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وأتباعه، وخاصة ابن القيم وابن كثير.

نجد في أيامها الأولى

كانت نجد - من الوجهة الدينية - كسائر االأمصار الأخرى : مرتعاً للخرافات والعقائد الفاسدة التي تتنافى مع أصول الدين الصحيحة. فقد كان فيها كثير من القبور التي تنسب إلى الصحابة يحج الناس إليها. ويطلبون منها حاجاتهم.

(١) في كتاب « لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب» أن الشيخ رحل إلى فارس أيضاً وتعلم بها الحكمة المشرقية، كما تعلم في رحلته أيضاً صنع البنادق وتحضير الذخيرة وغير ذلك من فنون الحرب.

ويتوسلـون بالمقبورين إلى دفـع كروبهم. فكانوا في الجُبَيْلة يؤمنون قـبر زيد بن الخطاب لتحسين حالهم وإجابة ملتمسـهم- كما كان أهل الدرعية - التي صارت فيما بعد معقل التوحيد ومقر حكم آل سعود - يضرعون إلى مثل هذه القبور لمثل هذه الأغـراض. وأغـرب من ذلك توسلهم بـفحل الـنخل في بلدة «منفـوحـة» واعتـقادهم أن من تؤمـه من العوانس تتزوج لـعامهـا. فكانت من تقصـده تقول «يافحل الفحول، أريد زوجاً قبل الحول!».

وكان في الدرعية غار يقدسونه، ويزعمون أنه كان ملجأ لإحدى بنات الأمير التي فرت هاربة من تعـذيب بعض الطغاة. واتخذت فـي أحد الجبال الصـخرية مأوىى لها، فـانشق لها الكهف بمعجـزة لتأوى إليه. فهذه الروايات تـكشف عما كانت عليه نجد من العقيدة الدينية الفاسدة.

أما من حيث الأحكام: فلم يكن هناك قانون أو شـريعة إلا ما قضت به أهواء الأمراء وعـمالهم. ومن حيث السـياسة: فـقد كانـت بلاد العرب منقسـمة إلى ولايات عديدة، يحكم كل واحدة منها أمير لاتربطه وجاره أية رابطة. ومن أشهر هؤلاء الأمـراء بنو خالـد في الأحسـاء، وآل معـمـر في العـيينة والأشـراف في الحجاز، وآل سعـود في الدرعية، والسعدون فيما بين النهـرين، وغيرهم. وقد كان سكان بلاد العرب - وهم الحضر- في حروب دائمة مع البدو سكان البادية، وكذلـك كان الأمـراء على قدم الاسـتعـداد عندما تسنح الفـرص للتعـدي على جحرانهم إذا بدا من هؤلاء الجيران ضعف أو عدم استعداد .

وباختـصار فهذه كـانت حالة بلاد العرب عندما رجع الشـيخ محمد بـن عبد الوهاب إلى وطنه، وقد اسـتقر به النوى في العـيينة، حيث جد به العـزم أن ينقذ نجداً ما حَلّ بها من البلاء. فبدأ يدعو النسا أن يعودوا إلى دين ا الصحي ويتركوا

كل ما جد من البدع، وغيرها مما يتنافى مع نصوص الكتاب والسنة. وفي الوقت نفسه طلب إلى الأمراء ذوي الشأن أن يطبقوا أحكام الشرع. وقد قام بدعوته مسالماً لا يدعو إلى شدة أو عنف. وراسل علماء عصره في البلاد الإسلامية الأخرى . وأظهر ألمه لما أصاب المسلمين. وحضهم على أن يكونوا من زمرة المصلحين الدينيين. فكان ذلك سبباً طبيعياً لغضب خصومه. أولئك الذين خافوا على سلطانهم من دعوته، وأخيراً فقد اضطر أن يهاجر من العيينة التي هددها بالغزو سليمان آل محمد رئيس بني خالد، وأمير الأحساء والقطيف إذا لم تطر دمحمد بن عبد الوهاب. ففي عام ١١٥٧هـ - ١٧٤١م تركها إلى الدرعية مقر آل سعود حيث بابل زعيمهم محم دبن سعود، وهناك تحالفاً على الدفاع عن الدين الصحيح والعمل على الرجوع إلى الكتاب والسنة، وإنقاذ جزيرة العرب من البدع، وتعميم الدعوة إلى الإسلام بين البدو والحضر، وتوطيد النفس على ما يواجههم من الصعاب، فإنهم متى نصروا ا نصرهم تحقيقا لوعدد ا «وكان حَقًّا علينا نـصْرُ المؤمنين» وهكذا كان، فإن ما تمكن من قلوبهم من حب الحق جعلهم يتغلبون على خصومهم منفردين ومجتمعين.

لقد سكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب «الدرعية» وواصل ليله بنهاره في نشر الدعو بالوعظ وكتابة الرسائل، مكتفساً بهذه الوسيلة السلمية، ومحمد بن سعود يؤازره بما يملك من الوسائل ولكن خصوم الدعوة كانوا يعملون على تأليف القلوب لمحاربة الدعوة بكل الوسائل. فل ير الشيخ محمد وابن سعود بداً من الاستعانة بالسيف بجانب الدعوة الدينية. ولقد استمرت هذه الحرب الدينية التي تشبه - في كثير من الوجوه - الحروب التي استعرت نيرانها بين الكاثوليك والبروتستانت في الغرب أكثر من ستين عاماً.

وفي عـاماً ١١٧٠هـ (١٧٦٥م) مـات الأميـر محـمد بن سـعود وخلفـه ابنه «عبدالعـزيز» الذي اقتفى أثر أبيه في مـساعدة الشيخ ابن عبـد الوهاب على نشر دعوته في سائر بلاد العرب.

وي سنة ١٢٠٦هـ ١٧٩١م مات محمد بن عبدالوهاب بعد أن قام بواجبه خير قيام، ووضع من الكتب والرسائل ما أصبح أساساً يسير عليه خلفاؤه ، وقد سار أولاده على خطة أبيهـم من التحالف مع آل سـعود والتعـاون معهم حـتى أصبح الجميع كبيت واحد.

وفي سنة ١٨٠٥م كان جـميع شبه جـزيرة العرب، بما في ذلك جزء كبـير من اليمن وعمـان يخضع سلطان آل سعود، تـؤدي واجباتها الدينيـة حسب الدعوة الإصلاحية التي قام بها محمد بن عبد الوهاب. ولقد عز على الترك أن يروا دولة دينية تقوم فـي بلاد العرب- بلاد رسول الشريعة الإسـلامية- كمـا عز عليهم أن يروا دولة حديثة مدنيـة يقيم دعائمها محمد علي في مـصر، فأشعلوا نار الحرب بين الاثنين، فكانت محنة عظيمة على نجد عامة، وعلى آل سعود خاصة، ولكن القوة الغشوم، وإن نالت من سلطة الحكام، فـإنها ما كانت لتصل إلى قلوب أهل الإيمان.

ماهي الدعوة الجديدة؟

لم يكن الشيخ محمد بن عبدالوهاب نبـيا كما ادعى نِيبْهَر الدانمركي، ولكنه مـصلح مجـدد داع إلى الرجوع إلـى الدين الحق، فليس للشـيخ محـمد تعـاليم خاصة، ولا آراء خـاصة وكال مايطبق في نجد من الفـروع هو طبق مذهب الإمام أحمد بن حنـبل ، وأما في العقائد فهم يـتبعون السلف الصالح. ويـخالفون من عداهم، وتكاد تكون عـقائدهم وعباداتهم مطابقة تمام المطـابقة لما كتبه ابن تيـمية

وتلاميذه في كتبهم، وإن كانوا يخـالفونخم في مسائل معدودة من فروع الدين. وهم يرون فوق ذلك أن مـا عليه أكـثر المسلمين من العـقائد والعبـادات لا ينطبق على أسـاس الدين الإسلامـي الصحـيح. وإننا نلخص فـيمـا يلي المسـائل التي اشتهروا بها، والتي تعد كأنها طابع خاص بالنجديين.

أولا« التوحيد»: يعتقدون- اسـتناداً إلى كلام الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة السلف - أن مـعنى « لا إله إلا ا » البـراءة من كل معـبود غـير ا ، وإخـلاص التوجـه إلى ا وحده، وأن العبادة إذا صـرفت لغير ا صـار ذلك الغي إلها مع ا ، وإن لم يعتـقد الفاعل ذلـك، فالمشرك مـشرك سواء سـمى شركه شـركا أو توسلا. وليس لديهم من شك في أن من قال : يارسول ا أو يا ابن عباس، أو يا عبدالقادر، أو غيرهم من المخلوقين طالـباً بذلك دفع شر أو جلب خير من كل ما لا يقدر عليه إلا ا تعالى فهو مشرك يهدر دمه؛ ويستباح ما له.

ثانياً «الشفاعـة»: لاينكرون شفاع النبي ﷺ يوم القيامة حـسبما ورد. وهم يثبتونها لسائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حسبما ورد أيضاً، ولكنها تُسْأ من المالك لها وهو ا ، وإذنه فيها لمن شاء من الموحدين، فيقال: اللهم شفع نبينا محمـد فينا يوم القيامة، اللهم شـفع فينا عبادك الصالحين أو نحـو ذلك. وأما ما يجري على ألسنة الناس من قولهم : يا رسول ا ، أو يا ولي ا أسألك الشفاعة أو غيـرها، كأدركني أو أغـثني أو نحو ذلك. فإنه من الشـرك، إذا لم يرد بذلك نص من كتاب أو سنة ولا أثر من السلف الصالح .

ثالثاً : القبور» : الكلام على القبور يتناول أولا: البناء عليها وزيارتها: ثانياً: ما يفعله الناس عندها من الدعاء والصلاة وغيرها، ثالثاً: ما يقام عليها من القباب والمساجد . رابعاً: السفر إليها. أما زيارة القبور: فهي مندوبة للاعتبار والاتعاظ

والدعاء للميت وتذكر الآخرة. ويراعى فيها الطريق التي سنها النبيﷺ في الزيارة : أما الذبح للمقبور والاستغاثة به والسجود له، فهي شرك. وأما تجصيص القبور والبناء والكتابة عليها فكلها من الأمور المبتدعة المنهى عنها.

وهم يستدلون على ذلك بأحاديث كثيرة وردت، وبأقوال السلف الصالح وعملهم. ولذا فقد هدموا في مكة والمدينة القور المرتفعة وسوَّوها بالأرض كما أزالوا القباب عند استيلائهم على الحرمين الشريفين في القرن الماضي، كما أزالوها مرة أخرى في الفتح الحاضر سنة ١٣٤٣و ١٣٤٤هـ (١٩٢٥و ١٩٢٦م) أما شد الرحال والسفر إلى القبور فبدعة .

رابعاً : إعلان الحرب على البدع الشائعة في الأمصار مثل الاجتماع في وقت مخصوص على من يقرأ سيرة المولد الشريف اعتقاداً منه أنه قُرْبَة ومثل الزيادات على الأذان المشروع.

وبالجملة : فإنهم يحرصون على العبادات الشرعية أن تكون على السنة التي وردت على النبي ﷺ بلا زيادة أو نقص.

ويلحق بهذا ما هو شائع في كثير من الأمصار من خروج النساء وراء الجنائز، وخروجهن لزيارة القبور، والاحتفالات السنوية المسماة بالموالد، وإقامة الحفلات للأذكار المبتدعة،وما يفعله بعض الدراويش من الرقص والمزمار؛ فإن ذلك كله محرم وقد منعوا ما كان موجوداً منه في الحجاز.

وبسبب ذلك كان الخلاف بين الحكومة العربية السعودية وبين الحكومة المصرية على المحمل وقبوله في الحجاز. والنجديون يحتجون بأنه بدعة لا يصح إقرارها في بلد الوحي والدين، والمصريون يقولون : إنه عادة وشعار للحج ليس إلا.

خامساً : الجهاد: مما لا جدال فيه أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يعتبر ما

انصرف من العبادات لغير ا إسلاماً، ولذا فإنه كان يبدأ الأمر بالدعوة إلى التوحيد وتنفيذ أوامر ا بلا هوادة. فمن أطاع فقد سلم، ومن خالف أو عاند فقد حل دمه وماله؛ وعلى هذا الأساس كانت غزواتهم في نجد وخارج نجد من اليمن والحجاز وضواحي سوريا والعراق.

كل بلد يدخلونها حربا فهي حلال لهم، إن أمكنهم البقاء بها ألحقوها بأملاكهم، وإن لم يمكنهم البقاء اكتفوا بما يصل إلى أيديهم من الغنيمة . وهنا يجيء الخلاف بينهم وبين معارضيهم . فإن غيرهم يقول : إن من قال « لا إله إلا ا محمد رسول ا » فقد عصم ماله ودمه، أما هم فيقولون : إن القول با عبرة به ما لم يدعمه العمل، فمن قال « لا إله إلا ا محمد رسول ا » وهو لايزال يدعو الموتى ويستغيث بهم ويسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، فهو كافر مشرك، حلال الدم والمال. ولا عبرة بقوله. ولهم على هذا أدلة كثيرة من الكتاب والسنة. ليس هنا موضع تفصيلها.

والجهاد - أو إعلان الحرب - من حقوق الإمام ينظر فيه إلى المصلحة أو دفع المضرة، فإن رأي المصلحة تعين عليه إعلان الجهاد . ووجب على سائر رعيته متابعته والدخول في سلك الجندية . وعلى هذا كانت الغزوات القديمة والحديثة معتبرة من الجهاد الشرعي.

سادساً، الاجتهاد: للشيخ محمد بن عبدالوهاب بعض رسائل في الدعوة إلى الاجتهاد، والرد على أهل التقليد والمعاندين، استند في أكثرها إلى ما كتبه ابن القيم في أعلام الموقعين.

ولكن الشيخ محمد ، وإ كان له بعض مسائل اجتهادية- مثل جعل دية المسلم ٨٠٠ ريال بدل مائة ناقة - فإن في الحقيقة يخطو خطوات الإمام أحمد، ويعتمد

على كتب الفروع المولفة على طريقته.

ومما لشك فيه: أن علماء نجد في بدء النهضة الإصـسلاحية كانوا أكثر إحاطة بالسنة وعلماً بالشريعة، وأوسع مدارك وأبعد نظراً في فهمهم للأحكام.

إن الحكومة العـربية السعودية الحـاضرة- وهي الحكومة القائمـة على أساس دعوة الشـيخ محمـد بن عبدالوهاب - اضـطرت إلى اقتبـاس كثيـر من القوانين التجارية وسمتـها نظاماً، لأن كتب الفقه لم تتناول كثيـراً من المعاملات التجارية التي يتعامل بها أهل هذا الجيل، كما اضطرت إلى تشكيـل محكمة تجارية سمتها «المجلس التـجاري» للنظر في المنازعـات التجـارية؛ ولا أعلم لماذا لا تلحق هذه النظم بأبواب الفـقه كي يدرسـها الطلاب أسوة بالمسـائل الفقـهيـة الأخرى التي أصبحت ملحقة بالتاريخ، مادام هنالك يقين بأن هذه النظم لا تتعارض مع أحكام الكتاب والسنة.

إن هنالك مجـالا واسعاً للإصـلاح الديني، وإدخال كـثير من التـجديد على أبواب الفقه، ولكن يعوزنا همة وفهم العلماء ورغبة الأمراء .

والنجديون يحرصـون أشد الحرص على تنفيذ أحكام الشـريعة في تحريم لبس الحرير للرجال وتحليهم بالذهب، كمـا يحرمون التدخين، وقد يجلدون المدخن. ومما لاشك فيه : حكومتهم الأولى كانت أصرم في هذا من الحكومة الحالية.

ولقـد كانت مـسألة الدخـان من المسائل التي دار البـحث فيـها بين الحكـومة المصرية والحكومة السـعودية سنة ١٩٢٦م، ومال مفتى مصر فـيها إلى الكراهة. كما أنه أورد رأي فريق من العلماء ممن يرى التحريم.

لقـد روى بَالجُـرِيـف في رحلتـه إلى نجـد سنة ١٨٦٢م أنه سـمع من بعض النجديـن : أنهم يرون أن شرب الدخان أشـد لديهم من الخمـر والزنا ، وبعض

المحرمات المنصوص عليها، ولا شك أن هذه الرواية قد سمعها من جاهل. فقد سمعت شيئاً قريباً من هذا من بعض النجدين المقيمين بالكويت، ولكنهم لم يكونوا من العلماء. ولا يعبرون عن رأي علماء نجد الذين يعدون مثل هذا القول جرأة على الدين.

إن علماء نجد - وإن أجمعوا على تحريم الدخان - فلم أسمع أحداً منهم يقول مثل هذا القول، كما أني لم أقف على شيء مثل هذا فيما كتبه متقدموهم أو متأخروهم.

وعلماء نجد يحرمون التصوير ويكرهون الموسيقى، ولا يقبلون أي تأويل في ذلك.

ما ينسب إلى النجديين وهم أبرياء منه

لا شك أن الحرب النجدية المصرية في القرن الماضي وما أعقب ذلك من خلاف بين آل سعود والأتراك قد صحبه كثير من الدعايات السيئة ضد النجديين. وكثير من الأشياء التي نسبت إليهم مكذوبة.

(١) لقد نسب رلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب والآخذين بعدوته كراهية النبي ﷺ، والحط من شأنه وشأن سائر الأنبياء والأولياء والصالحين.

لقد نسب هذا إلى الإمام ابن تيمية وإلى تلاميذه، كما لا يزال ينسب إلى كثير من العقلاء والمصلحين في الهند وغيرها حتى ممن ليست لهم أي صلة بنجد وأهلها.

إن منشأ هذه النسبة: هو أن النجديين استناداً إلى حديث «لات تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» يرون

أن السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يعملها أحد من الصحابة أو التابعين. ولم يأمر بها النبيﷺ ، وقد سبق ابن تيمية وابن عبد الوهاب طوائف كثير من العلماء المتقدمين بهذا الرأي.

(٢) إن النجديين يمنعون استقبال قبر الرسول ﷺ عند الدعاء، كما يمنعون السجود عند قبره وقبر غيره، ويمنعون التمسح والتمرغ عند القبر، كما يمنعون كل ما من شأنه الاستغاثة أو الطلب مما شاع عمله عند قبر النبي ﷺ وقبور الصالحين في مصر وبغداد والهند وكثير من الأمصار.

(٣) هدم القباب والأبنية المقامة على القبور وإبطالهم لسائر الأوقاف التي رصدت على القبور والأضرحة.

(٤) إنكارهم على الوصيري قوله في البرودة:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

وقوله : « ومن علومك علم اللوح والقلم»

وقوله :

إن لم تكن في معادى آخذاً بيدي فضلا وإلا فقل يا زلة القدم

فإن هذا القول مجازفة وغلو، وفيه مخالفة صريحة لنصوص القرآن والأحاديث الصحيحة؛ وهم - فوق هذا - يعتقدون أن من اعتقد هذا على ظاهره فيهو مشرك كافر.

فاتهمهم خصومهم بكراهية النبي. وتسبوا إليهم أقوالاً هم أبرياء منها نسبوا إليهم القول بأن العصا خير من النبي، إلى غير ذلك من التهم الباطلة. ولقد سمعت في نجد أن حكام نجد الشمالية أثناء خصومتهم مع آل سعود كانوا يكتبون

إلى الأتراك أن آل سعود اتخذوا راية شعارها: لا إله إلا ا مَحَدّ رسول (بحذف ميم محمد) أي لا أحد رسول ا ، وهذا كله تنفير للأتراك من خصومهم، وهم يعلمون حق العلم أن هذا كذب.

ولقد حضر إلى مكة أثناء الحرب الحجازية النجدية في سنة ١٩٢٥م بعض أفاضل السنغاليين وَتِطْوَان، وكانوا أثناء حديثهم يبكون لشدة تأثرهم؛ لقد أخبرونا أنهم سمعوا في الإسكندرية أشياء كثيرة تنسب إلى النجديين، لم يجدوا لها أثراً في الحجا، لقد سمعوا من بعض الناس : أن الوهابيين هدموا الكعبة لأنها حجر، وسمعوا أنهم في الأذان يقولون « أشهد أن لا إله إلا ا » فقط ولا يقولون « أشهد أن محمداً رسول ا ».

إن النجديين أحرص الناس على محبة الرسولﷺ، ولكنهم يكرهون الغلو، ويقاومون البدع مهما كان نوعها، ومهما كان الدافع لها، ويقولون : إن المحبة للرسول هي الاهتداء بهدي الرسول وأتباعه، أما الابتداع وتعطيل الشريعة وتقديم الأهواء فهو كراهة لا محبة وفي القرآن الكريم « قل إن كنتم تحبون ا فاتَّبعوني» .

ومما ينسب إلى أهل نجد: تكفيرهم من عداهم، وهو بلا شك تزوير من خصومهم، وإن وقعت بعض أشياء من بعض جفاة الأعراب والجهال. فليس من الإنصاف أن ينسب ذلك إلى أهل نجد.

أما الشيخ ابن عبدالوهاب وتلاميذه، فإنهم لا يكفرون من صحت ديانته ، واشتهر صلاحه، وحنت سيرته، وإن أخطأ في بعض المسائل. ولكنهم يكفرون من بلغته دعوة الحق ووضحت له الحجة وقامت عليه وأصر مستكبراً، هذا في الأفراد. أما في البلاد (ما يعتبر منها بلاد إسلام وبلاد كفر) فإننا نقتبس ما كتبه

العلامة الشيخ حَمَد ابن عَتِيق من رسالته التي وضعها عن مكة: هل هي بلاد كفر، أو بلاد إسلام؟ فقال : هنالك أصلان لاعتبار البلدة مسلمة:

(١) التوحيد: وهو أن كون ا معبود الخلائق لا سواه، والتوحيد لا يصبح مع وجود الشرك.

(٢) طاعة النبي في أمره وتحكيمه في دقيق الأمور جليلها. وتعظيم شرعه ودينه والإذعان لأحكامه في أصول الدين وفروعه.

فإذا تحقق وجود هذين الأصلين، علما وعلما ودعوة، وكان هذا دين أهل البلد، أي بلد كان، بأن عملوا به ودعوا إليه، وكانوا أولياء لمن دان به، ومعادين لمن خالفهم، فهم موحدون .

أما إذا كان الشراك فاشياً ، مثل دعاء الكعبة والمقام، ودعاء الأنبياء والصالحين، وفشا مع ذلك الربا والظلم ، ونبذت السنن، وفشت البدع والضلالات، وصار التحاكم إلى الظلمة وصارت الدعوة إلى غير القرآن والسنة. فلا شك أن هذا البلد بلد كفر، ولا عبرة بالصلاة والحجة والصوم والصدقة.

إن التوحيد قد تقرر في مكة بدعوة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، واستمر أه لمكة عليه ردحاً من الزمن. ثم فشافيهم الشرك فصاروا مشركين وصارت بلادهم بلاد شرك، مع أنهم قد كانوا على بعض أشياء من الدين، فكانوا يحجون ويتصدقون على الحجاج وغير الحجاج.

أثر التمسك بالشريعة الإسلامية في الحياة العامة وأثر الانصراف عنها

إن العقيدة الراسخة عند النجديين - أمرائهم وعلمائهم- أن ا مكنهم في جزيرة العرب، وأن سلطانهم في تلك الجزيرة لإحياء معالم الشريعة ، وإظهار دين ا . وجعل سلطان التوحيد في الجزيرة هو السلطان الأول، وإزالة كل أثرٍ من أثار الشرك.

ولقد قام الإمام سعود في خطبته بعد دخول مكة سنة ١٢١٨هـ « إنا كلنا من أضعف العرب، ولما أراد ا ظهور هذا الذين دعونا إليه، وكل يهزأ بنا ويقاتلنا».

وكان الملك عبدالعزيز رحمه ا في كل مناسبة يشير إلى هذا، ذاكراً فضل ا عليه وعلى أجداده من قبل، وأن ما وقع على آل سعود في أيامهم الأولى لم يكن إلا عقوبة لهم من ا لتهاونهم في أمر المحافظة على الدين والانصراف إلى أمور الدنيا. وكذلك جلالة الملك سعود مد ا في عمره.

ولذا فإن المشايخ - من وقت لآخر - مازالوا يقدمون النصيحة لإمامهم ويوصونه بالمحافظة على الدين، والأخذ على أيدي المتهاونين به، إذا رأوا شيئا من التراخي والتهاون من ذوي النفوذ والسلطان.

في أيام الإمام فيصل كان الشيخ عبدالرحمن بن حسن وولده الشيخ عبداللطيف لا يتوانيان عن النصيحة ولفت نظر الإمام إلى عماله ورعاياه، وتذكيره بعاقبة التفريط، وأن ا لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

المراجع العربية

أخبار مكة للأزرق

تقويم البلدان لأبي الفداء

معجم البلدان لياقوت الحموي

رحلة ابن بطوطة

رحلة ابن جبير

القاموس المحيط للفيروزابادي

تاريخ ابن غنام (نسخة مخطوطة بالمكتبة الملكية البريطانية)

تاريخ ابن بشر مطبوع بمكة

لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب (نسخة خطية بالمكتبة الملكية البريطانية)

مقدمة ابن خلدون

تاريخ الجبرتي

المغني والشرح الكبير

فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر

مجموعة المسائل والرسائل النجدية

تاريخ مكة لزيني دحلان

العقد الثمين للفاسي

الإعلام بأعلام بلد ا الحرام لقطب الدين المكي

تاريخ العصامي

مسالك الأبصار لابن فضل ا العمري

المراجع العربية

Travels through Arabia, M. Niebuhr, 1792, Vol. 2.

Nates on the Beduins and Wahabiays, J. S. Burchordt, 1831, Vol. 1.

Travel in Arabia, J. S. Burckordt, 1829, Vol. 2.

A. Briet History of Wahauty. Sir H. J. Brydges, 1834 (One Vol.).

Historical Geography of Arabia, C. Fastee, 1844 (Two Vol.).

Central and Eastern Arabia, W. B. Palgrave, 1877.

The Southern Arabia, J. T. Bent, 1900.

The Penetration of Arabia, T. G. Hagarth, 1904.

History of Arabia, Andrew Crichton, 1833 (Two Vol.)

The Heart of Arabia
Arabia of the Wahhabis — H. Stj B. Phiby

Arabia Deserta, Charles Daughty.

In unknown Arabia, R. E. Chessmon, 1926 (One Vol.)

The Persian Gulf, Sir A Welson, 1928 (One Vol.)

Revolt in the Arabia, T. E. Lawrance, 1927.

The independen Arab, Young, 1938.

Northern Negd, A. Mucil. 1928.

Hand book of Arabia, 1920.

(وهذا غير المجلات والصحف)